

بسم الله الرحمن الرحيم

ظاهرة التكفير في المجتمع الإسلامي وكيفية الحد منها في ضوء الكتاب والسنة

د-قدور أحمد الثامر

كلية التربية/القائم- جامعة الانبار- العراق

المقدمة:

يقف العالم الإسلامي اليوم على حافة الهاوية ليس بسبب التهديدات الخارجية فحسب، بل بسبب بعض أبنائه الذين فقدوا البوصلة في عقائدهم وفي منهجهم وفي حياتهم، وعجزوا عن حل مشكلاتهم وهمومهم العقائدية والحياتية المختلفة، لفرط جهلهم في فهم دينهم وسنة نبيهم، أو لأنهم كانوا فريسة سهلة لخصوم الأمة وأعدائها، إذ لجأ البعض منهم إلى مسألة التكفير للآخرين، والغالب على هؤلاء أنهم عوام لا يعرفون أصول الاعتقاد، وإنما لأنهم تعصبوا لعقيدة فاسدة أو مذهب يحبون أن ينتمون إليه من غير إحاطة بكنهه، فالأولى ترك عموم الناس موكلين إلى خالقهم العالم بسرئيرهم، وحسابهم على الله، وقد هدفت من هذا البحث إلى تصحيح مفاهيمهم الشاذة وعقائدهم الفاسدة بهذا الشأن، خشية من إثارة الفتنة والفرقة والتشتيت بين المسلمين، سيما بعد أن فقدت الأمة القوامة والسيادة على أراضيها وعلى مواطنيها، وإن هذا الأمر ليس بالهين كما يتصوره بعض الناس، بل هو خطير للغاية وهو يشغل بال الكثير من الناس في مجالسهم وحلقاتهم ومنتدياتهم الخاصة، ويشغل بال المفكرين وأصحاب الشأن، والقضية لها جذورها في تاريخ الفكر الإسلامي، ولعلها أول قضية فكرية شغلت بال المسلمين، وكان لها آثارها العقلية والعملية (عسكرية وسياسية) لعدة أجيال، ثم لم يلبث الفكر الإسلامي أن تجاوزها. واستقر على ما هو عليه أهل السنة والجماعة اليوم. وأنا ممن شغلني هذا الأمر، فهداني الله لكتابة هذا البحث علّه يسهم في إطفاء نار الغلو، ويُؤرّ عقول المكفرين وبعض طلاب الحقيقة، وقد قسمته إلى مقدمة وعدة مباحث:

في المبحث الأول: بحثت عن أصل مصطلح الكفر وتعريفه وجذوره وأنواعه ومنتشؤه منذ ظهور فكر الخوارج في صدر الإسلام وحتى تجدد ظاهرة الغلو مرة أخرى في العصر الحاضر، ثم تحدثت عن أسس وقواعد التكفير التي ذكرها علماءنا الأوائل، ثم بينت موانع التكفير والأسباب المباشرة التي أدت إلى بعث الغلو في التكفير من جديد وخطورته على الأفراد وعلى المجتمع، وكيفية الوقاية منه وعلاجه مستنيرا بمنهج السلف في مقاومته والوقاية منه.

وفي المبحث الثاني: تكلمت عن أهم بواعث وأسباب ظاهرة التكفير ومواقف أهل العلم منها، ثم بحثت في أهم القواعد التي بني عليها الدين الإسلامي ورؤيته لمواجهة

هذه الظاهرة، ثمّ بينت أثر وسائل الإعلام في تأجيحها، وأثرها في معالجتها إن كانت موجّهة وتسيير وفق خطة تربوية فكرية واضحة.

وفي المبحث الثالث: تحدثت آثاره الميدانية والشرعية على المجتمع، بحثت في آثاره العامة المدمرة على سائر فئات وشرائح المجتمع وقد توقفت عند عدد من الحركات والمذاهب الراضية لشرعية الإسلام وأثرها في تأجيح ظاهرة التكفير وما ترتب عليها من آثار خاصة مدمرة على الفرد والأسرة.

وفي المبحث الرابع: تحدثت عن الحكمة في معالجة ظاهرة الغلو في التكفير والإشارة إلى عدد من النقاط الواجب اتخاذها للوقاية من ظاهرة الغلو في التكفير وكيفية علاجها والقضاء عليها. ثم ختمت البحث بخاتمة مناسبة دونت فيها بعض النتائج التي توصلت إليها.

المبحث الأول: تعريف ظاهرة التكفير وجذورها التاريخية والفكرية

المطلب الأول:

أولاً- ظاهرة التكفير: وهي من المصطلحات والمفاهيم المستخدمة في ثقافتنا المعاصرة وهي تنسم غالباً بالفوضى، ولم أعتز لها على مصطلح متفق عليه، في المجامع اللغوية والشرعية والمؤسسات العلمية.

ثانياً- تعريف الكفر:

ثانياً- الكفر في اللغة ومرادفاتها: بمعنى الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بالثوب: قد كَفَرَ درعه، ويقال للمزارع: " كافر " لأنه يغطي البذار بالتراب، ومنه سمي الكفر الذي هو ضد الإيمان " كفرة " لأن فيه تغطية للحق بجحد أو بغيره، وقيل: سمي الكافر " كفرة " لأنه قد غطى قلبه بالكفر (١). والكفر في الاصطلاح هو: اعتقادات وأقوال وأفعال جاء في الشرع ما يدل أن من وقع فيها ليس من المسلمين، وقد حكى جمع من أهل العلم إجماع العلماء على أن الكفر يكون بمجرد القول أو بمجرد الفعل (٢). أما التكفير فهو نوعان: أحدهما: كفر النعمة. والثاني: الكفر بالله. والكفر الذي هو ضد الشكر: إنما هو كفر النعمة لا الكفر بالله (٣).

ثالثاً- أصل فتنة التكفير وسببها المباشر:

إن أصل فتنة التكفير تكمن في تفسير بعض الآيات من سورة المائدة وهي قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤)، فيأخذها الناس من غير فهم عميق، ويوردونها بلا معرفة دقيقة. ونحن نعلم أن هذه الآية الكريمة قد تكررت وجاءت فاصلتها بألفاظ ثلاثة، وهي: ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ ، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ (٥)، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ (٦).

(١) - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج ٥، ص ١٩١.

(٢) - نواقض الإيمان القولية والعملية، عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، ج ١، ص ٢٩.

(٣) - أحكام عصاة المؤمنين، مروان كجك، دار الكلمة الطيبة، ط ١، ١٤٠٥هـ، ج ١، ص ٨٩.

(٤) - المائدة ٤٤.

(٥) - المائدة ٤٧.

فمن تمام جهل الذين يحتجون بهذه الآية، أنهم يحتجون باللفظ الأول منها فقط: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: فأخذوها (بغير نظر) على أنها تعني الخروج من الدين، وأنه لا فرق بين هذا الذي وقع في الكفر، وبين أولئك المشركين من اليهود والنصارى وأصحاب الملل الأخرى الخارجة عن ملة الإسلام. بينما لفظة الكفر في لغة الكتاب والسنة لا تعني (دائماً) الكفر المخرج من الملة (٧).

فشان لفظة «الكافرون» التي وردت في الآية الأولى لا تدل على معنى واحد هو ذاته شأن اللفظتين الأخريين: «الظالمون» وقوله «الفاسقون»، فكما أن من وُصف بأنه ظالم أو فاسق لا يلزم بالضرورة ارتداده عن دينه، فكذلك من وُصف بأنه كافر؛ سواء بسواء. وهذا التنوع في معنى اللفظ الواحد هو الذي دلت عليه اللغة، ودل عليه الشرع الحنيف.

ووفق هذا المنهج فما هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما إن هناك أناساً يفهمون هذه الآية فهماً سطحياً، من غير تفصيل، فقال: ليس الأمر كما قالوا، أو كما ظنوا، وإنما هو كفر دون كفر (٨). ثم إن كلمة (الكفر) ذُكرت في كثير من النصوص القرآنية والحديثية، ولا يمكن أن تُحمل (فيها جميعاً) على أنها تساوي الخروج من الملة (٩)، من ذلك:

-كفر يخرج من الملة وهو خمسة أنواع:

"النوع الأول" كفر التكذيب، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} .

"النوع الثاني" كفر الإباء والاستكبار مع التصديق والدليل قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} .

"النوع الثالث" كفر الشك وهو كفر الظن، والدليل قوله تعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} .

"النوع الرابع" كفر الإعراض، والدليل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ} .

"النوع الخامس" كفر النفاق، والدليل قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (١٠).

-وكفر ليس بمخرج من الملة: وهو الكفر الأصغر: وَالْكَفْرُ الْأَصْغَرُ: هُوَ كُفْرٌ لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَهُوَ الْكُفْرُ الْعَمَلِيُّ، وَهُوَ فِعْلُ الذَّنُوبِ الَّتِي وَرَدَتْ تَسْمِيئُهَا فِي

(١) - المائدة ٤٧.

(٢) - فتنة التكفير، محمد ناصر الدين الألباني، ج ١، ص ٥، وجامع لطائف التفسير، عبد الرحمن بن محمد القماش، ج ١، ص ١٥٤.

(٣) - فتنة التكفير، محمد ناصر الدين الألباني، ج ١، ص ٦، وجامع لطائف التفسير، عبد الرحمن بن محمد القماش، ج ١، ص ١٥٥.

(٤) - المصدر نفسه، ج ١، ص ٦.

١٠ - الرسالة المفيدة، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، بتحقيق:

محمد بن عبد العزيز المانع، نشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ج ١، ص ٤٥.

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كُفْرًا وَلَا تَصِلُ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ الْأَكْبَرِ، مِثْلُ كُفْرِ النِّعْمَةِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ} (١١)(١٢).

- والحديث المعروف في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر] (١٣). فالكفر هنا هو المعصية، التي هي الخروج عن الطاعة، ولكن الرسول ﷺ (وهو أفصح الناس بياناً) بالغ في الزجر، فقال: (وقتاله كفر). فإذا كان هذا الرضى رضى قلبياً بالحكم بغير ما أنزل الله، فحينئذ ينقلب الكفر العملي إلى كفر اعتقادي. فأى حاكم يحكم بغير ما أنزل الله وهو يرى ويعتقد أن هذا هو الحكم اللائق تبنيه في هذا العصر، وأنه لا يليق به تبنيه للحكم الشرعي المنصوص في الكتاب والسنة، فلا شك أن هذا الحاكم يكون كفره كُفْرًا اعتقاديًا، وليس كُفْرًا عمليًا فقط، ولا سيما لو سئل عن الحكم بغير ما أنزل الله؟! وأجاب: بأن الحكم بهذه القوانين هو الحق والصالح في هذا العصر، وأنه لا يجوز الحكم بالإسلام لوقع في الكفر المخرج من الملة من دون شك أو ريب كون الحكم الإسلامي نوعان:

حكم لم يرد به قرآن ولا سنة، أو حكم ورد به أحدهما، ولكن لم يكن الوارد به قطعياً، بل محتملاً له ولغيره، وكان بذلك محلاً لاجتهاد الفقهاء والمشرعين، فاجتهدوا فيه، وكان لكل مجتهد رأيه، وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادي، والحكم في هذا النوع الاجتهادي لو جاء بما يخالف جميع الآراء والمذاهب الإسلامية، فإن الإسلام لا يمنعه ولا يميته لأنه ليس له في هذا النوع حكم معين، وإنما حكمه هو ما يصل إليه المجتهد باجتهاده المبني على تحري المصلحة والعدل، فمتى وجد العدل والمصلحة فثم شرع الله وحكمه.

٢- وحكم هو حكم قطعي منصوص عليه في كتاب الله أو سنة رسوله الصحيحة، فالحكم بغيره إن كان مبنيًا على اعتقاد أن غيره أفضل منه، وأنه لا يحقق العدل ولا المصلحة، فهو ردة يخرج بها القاضي عن الإسلام، أما إذا كان القاضي الذي حكم بغيره مؤمناً بحكم الله، وأنه هو العدل والمصلحة دون سواه، لكنه في بلد غير إسلامي، أو في بلد إسلامي مغلوب على أمره في الحكم والتشريع، واضطر أن يحكم بغير ما أنزل الله لمعنى آخر غير الجحود والإنكار، فإن الحكم في تلك الحالة لا يكون كُفْرًا، بل هو نظير من يتناول الخمر وهو يعتقد حرمتها، فيجب على القاضي المسلم أن يرد نفسه عن الحكم متى استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإذا لم يستطع أن يرد نفسه خوفاً من ضرر فادح يلحقه أو يلحق جماعته فإن الإسلام يبيح له ارتكاب أخف

١١ - النحل ١١٢.

١٢ - رسالة السجزي إلى أهل زيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت: عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي الوائلي البكري، أبو نصر (المتوفى: ٤٤٤ هـ)، بتحقيق: محمد باكرم با عبد الله، نشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط ٢٣، ١٤٤٢/٢٠٠٢م، ج ١، ص ١٤٥.

(١٣) - رواه البخاري في باب ما يُنهي عنه من السباب واللعن حديث رقم ٦٠٤٤، ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥ هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج ٢٢، ص ١٢٣.

الضررين، ما دام قلبه مطمئناً إلى حكم الله". فحكمه حكم عمار بن ياسر رضي الله عنه حينما أكره على النيل من رسول الله ﷺ (١٤).

وحقيقة تفاوت الناس في الإيمان والطاعة لله- قد قررها القرآن الكريم، كما أكدتها سنة رسول الله ﷺ. قال ﷺ في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (١٥).

فقد قسم الله عز وجل الأمة التي أورهاها الكتاب، واصطفاها من عباده إلى ثلاثة أصناف:

١. ظالم لنفسه، وهو كما قال ابن كثير، الْمُفْرَطُ في فعل بعض الواجبات المرتكب بعض المحرمات، مع قدرته على تجنبها.
٢. ومقتصد، وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.

٣. وسابق للخيرات، وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات، وتحمله لعواقبها مهما كانت (١٦).

فهؤلاء الثلاثة على ما في بعضهم من عوج وتقصير وظلم للنفس داخلون في الذين اصطفاهم الله من عباده. وأخبر الله ﷻ عن هؤلاء بأنهم جميعاً من أهل الجنة.

وصح عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قوله: هم أمة محمد ﷺ، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب (١٧).

المطلب الثاني: أنواع الكفر

من الخطأ تناول النصوص الدينية، من دون تدقيق وتمحيص ومن دون حكمة في تطبيقها، وبعيداً عن قاعدة ((فقه الأولويات))، وقاعدة ((درء المفسد مقدم على جلب المصالح))، فينبغي على المسلم عدم إطلاق كلمة (الكفر)، على أحد من دون معرفة هذه الأنواع من الكفر وتفصيل ذلك:

أولاً- الكفر العملي:

في الموقف من ظاهرة التكفير لا بد من معرفة أن الكفر مثله كمثل الفسق والظلم، ينقسم إلى قسمين:

(١٤) - فتاوي محمود شلتوت، محمود شلتوت، ج ١، ص ٦٢.
(١٥) فاطر ٣٢.

(١٦) - التوحيد وقرّة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، بتحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية/ مكتبة دار البيان، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ج ١، ص ٢٤.

(١٧) - تفسير ابن أبي حاتم، الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، المكتبة العصرية، صيدا، بتحقيق: أسعد محمد الطيب، ج ١٠، ص ٣١٨١.

القسم الأول: كفر وفسق وظلم يُخرج من الملة، إن كان فيه استحلال قلبي. إذ " يكفر من قال: إن الولي أفضل من النبي، أو المرسل إليه أفضل من الرسول أو أعز أو أعلى مرتبة، وأنه لو أنكر السنن الراتبية أو صلاة العيدين كفر، وأنه لو استحل إيذاء أحد من الصحابة، أو نفى علم الله بالمعدوم أو بالجزئيات كفر، واستحلال إيذاء غير الصحابة يكفر أيضاً كما هو ظاهر مما مرّ، وأن من أنكر خلافة الصديق مبتدع لا كافر، ومن سب الصحابة أو عائشة رضي الله تعالى عنهم من غير استحلال فاسق" (١٨).

والقسم الثاني: لا يُخرج من الملة؛ بل يعود إلى الاستحلال العملي. ككل المعاصي من الكفر العملي: لاسيما ما فشا في هذا الزمان من استحلال الربا، والزنى، وشرب الخمر، وغيرها، فلا يجوز أن نكفر العصاة المتلبسين بشيء من المعاصي لمجرد ارتكابهم لها، واستحلالهم إياها عملياً، إلا إذا ظهر يقيناً ما يكشف لنا عمّا في قرارة نفوسهم أنهم لا يُحرّمون ما حرم الله ورسوله اعتقاداً؛ فإذا عرفنا أنهم وقعوا في هذه المخالفة القلبية حكمنا حينئذ بأنهم كفروا كفر ردة. وفي أبي محجن الثقفي خير دليل وشاهد على مثل هؤلاء إذ دأب على شرب الخمر وهو مؤمن، فلك أن تتهمه: بالفسق، والفجور، ومخالفة السنة ولكن لا تتهمه بالكفر والردة عن الدين، حتى يظهر منه شيء يكون لنا عذر عند الله عز وجل في الحكم بردته، ثم ننظر في قوله ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه). فهم قد يكونون في داخل أنفسهم صالحين ومخلصين، ثم إنّنا لا نستطيع أن نعلم ما في قلب الفاسق، والفاجر، والسارق، والزاني، والمرابي... ومن شابههم، إلا إذا عبّر عمّا في قلبه بلسانه، أو أنه خالف الشرع مخالفة عملية واضحة لا تقبل الشك (١٩).

-ومن الخطأ العقائدي تحويل قضية الإيمان من يقين في القلب يصدّقه العمل، إلى مجرد كلام يطلقه اللسان ثم تحكم على قائله بالردة أو الكفر فهذا من الغلو. وإن التشدد في كل خطأ في اللسان يتعلّق بفروع العقيدة وإطلاق التكفير بناء عليه من دون البحث عن نيّة صاحبه هو من قبيل التسرع، كل ذلك في مقابل عدم الاهتمام بالعمل سواء كان على نطاق الفرد أو على نطاق الجماعة. فكثير من المعاصي تعد من قبيل اللطم ممّا يشجّع الشباب المسلم على الوقوع فيها، كما أن السعي إلى تطبيق الأحكام الشرعية على الأمة كلّها لم يعد مطلوباً انطلاقاً من فكرة عدم تكفير من لم يحكم بما أنزل الله وأن الكفر الوارد في الآيات الكريمة حول من لم يحكم بما أنزل الله إنما هو فسق وليس كفراً مخرجاً من الملة. والحق عدم تكفير كل مخالف بسبب مخالفته، بل ينزل حكمه بحسب مخالفته، من كفر أو بدعة أو فسق أو معصية. كما أن " الإيمان " شُعب متعددة ورتبها متفاوتة أعلاها قول " لا اله إلا الله " وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان، فكذاك " الكفر " الذي هو في مقابلة الإيمان، ذو شعب متعددة " فليس لأحد تكفير المؤمنين من دون معرفة هذه الشُعب. وقد يراد

١٨ - الإعلام بقواطع الإسلام، الإعلام بقواطع الإسلام من قول أو فعل أو نية أو تعليق مكفر، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)، بتحقيق: محمد عواد العواد، نشر: دار النقوى/ سوريا، ط ١، ٢٨ / ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م، ص ٢٠٣.

(١٩) - فتنة التكفير، محمد ناصر الدين الألباني، ج ١، ص ١٠.

به الكفر الأصغر، وهو الذي يوجب لصاحبه الوعيد دون الخلود في النار، ولا ينقل صاحبه من ملة الإسلام. إنما يدمغه بالفسوق أو العصيان، ويشمل المعاصي التي يخالف بها أمر الله ﷺ. وفيه جاءت أحاديث كثيرة، مثل: (من حلف بغير الله فقد كفر) أو (فقد أشرك)، (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم)، (من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما) (٢٠).

وإنما قلنا: إن الكفر الوارد في هذه النصوص وأمثالها ليس كفراً ناقلاً عن الملة، لأدلة أخرى. فقد تقاتل الصحابة، ولم يكفر بعضهم بعضاً بذلك. والمنقول عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: إنه لم يكفر من قاتله في معركة الجمل، أو صفين، وإنما عداهم بغاة. وقد صح الحديث: أن النبي ﷺ قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية (٢١) ... كما صح الحديث في الخوارج أنهم (تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق) (٢٢) وقد قاتلهم علي رضي الله عنه ومن معه. كما أثبت القرآن إيمان الطائفتين المقتلتين ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (٢٤).

ومثل ذلك، حديث: (من قال لأخيه يا كافر) (٢٥) فقد أثبت الأخوة بينهما، وهي لا تثبت بين مسلم وكافر، فدل ذلك على أنه لم يخرج من دائرة الإسلام بقوله. فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر، ومعه شعبة من شعب الإيمان أيضاً. وعلى هذا ورد عن النبي ﷺ في تسمية كثير من الذنوب كفراً، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان، فلا يخلد في النار.

وهذا مستفيض عن النبي ﷺ في الصحيح من غير وجه، فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان بالكلية، ولكن فيهم ما هو كفر، وهو هذه الخصلة، كما قال السلف: كُفِرَ دُونَ كُفْرٍ وَشِرْكٌ دُونَ شِرْكَ (٢٦). وكذلك قوله: (من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما) (٢٧) فقد سماه أخاً حين القول، وقد أخبر أن أحدهما باء بها، فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه.

(٢٠) - أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر، ينظر: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، رقم (١٤٠٥)، تأليف: محمد بن فتوح الحميدي، بتحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ط٢، ج٢، ص١٩٧.

(٢١) - رواه البخاري برقم (٤٤٧) باب من بنى مسجداً، ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، (المتوفى: ٩٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط٧، ١٣٢٣هـ، ج١، ص٤٤٢.

(٢٢) - أخرجه البخاري ومسلم، ينظر: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، حديث رقم (١٧٣٦)، محمد بن فتوح الحميدي، بتحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ط٢، ج٢، ص١٩٧.

(٢٣) الخُجَرَات: ٩.

(٢٤) الخُجَرَات: ١٠.

(٢٥) سبق تخريجه هامش ١١.

(٢٦) - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، بتحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج٢، ص٤٣٣.

(٢٧) - سبق تخريجه هامش ١١.

ومثل ذلك قوله: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)^(٢٨) أو (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل الله على محمد)^(٢٩) ونحوها. فلم يعتبره أحد من علماء المسلمين طوال القرون الماضية كفراً مخرجاً من الملة، وردة عن الإسلام.

وما زال الناس في مختلف الأزمنة يحلفون بغير الله، ويصدقون العرافين والكهان، فينكر أهل العلم والدين عليهم ويضللونهم أو يفسقونهم، ولم يحكم أحد بردتهم، ولا فرقوا بينهم وبين نساءهم، ولا أمروا بعدم الصلاة عليهم عند موتهم، أو بعدم دفنهم في مقابر المسلمين. وقد جاء في الحديث المرفوع: أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة^(٣٠).

ولهذا ذكر ابن القيم عدداً من الأحاديث التي أطلقت الكفر على بعض المعاصي ثم قال:

"والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة، فالسعي إما شكر وإما كفر، وإما صنف ثالث لا من هذا ولا من هذا"^(٣١).

ثانياً وثالثاً - الكفر القولي والاعتقادي:

وقد جمعت بين هذين النوعين من الكفر لصعوبة الفصل بينهما، إن ممّا أجمعت عليه الأمة أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالجنان، إذ إن الإيمان وإن قيل هو التصديق، فالقلب يصدق بالحق، والقول يصدق ما في القلب، والعمل يصدق القول، والتكذيب بالقول مستلزم للتكذيب بالقلب، إذ أعمال الجوارح تؤثر في القلب كما إن أعمال القلب تؤثر في الجوارح، فأيهما قام به كفرٌ تعدى حكمه إلى الآخر، فالكفر الاعتقادي يخرج الإنسان من الملة، بالنسبة لأحكام الدنيا، ويوجب عليه الخلود في النار بالنسبة لأحكام الآخرة. وهو الإنكار أو الجحود المتعمد لما جاء به محمد ﷺ أو بعض ما جاء به، مما علم من دينه بالضرورة. وهو في مقابل الإيمان. يقال: مؤمن وكافر. كما في مثل قوله ﷺ: «فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ»^(٣٢). ومن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامداً لها عالماً بأنها كلمة كفر فإنه يكفر بذلك ظاهراً وباطناً، قال الله ﷻ: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(٢٨) - رواه البخاري في باب (لاتحلفوا بأيمانكم)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري رقم (٦٦٤٧)، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، (المتوفى: ٩٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ٧، ط ١٣٢٣ هـ، ج ٩، ص ٣٧٥.

(٢٩) - رواه البخاري عن ابن مسعود في (باب السحر)، ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري رقم (٤٧)، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج ٢١، ص ٢٧٩.

(٣٠) - جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ، ج ١، ص ٦٢.

(٣١) - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، بتحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ج ١، ص ٣٧٣.

(٣٢) - البقرة ٢٥٣.

عَظِيمٌ» (٣٣) ولم يرد الباري بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط؛ لأن ذلك لا يُكْرَهُ الرجل عليه وهو قد استثنى من أكرهه، ولم يُردْ من قال واعتقد؛ لأنه استثنى المُكْرَهُ وهذا لا يُكره على الاعتقاد والقول معاً، وإنما يُكره على القول فقط، فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم، وإنه كافر بذلك ثم استثنى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، وأضاف إليه (من شرح بالكفر صدرًا) من المكرهين فإنه كافر أيضاً، فصار كل من تكلم بالكفر كافرًا (إلا من أكرهه)، فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقال ﷺ في حق المستهزئين: ﴿لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (٣٤). فبين أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته، فإن التصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم وإرادة فعلٍ فيه استهانة واستخفاف.

ثم إن الذي عليه الأمة أن من لم يتكلم بالإيمان بلسانه من غير عذر لم ينفعه ما في قلبه من المعرفة، وإن القول من القادر عليه شرط في صحة الإيمان، وقد اختلفوا في تكفير من قال إن المعرفة تنفع من غير عمل الجوارح، إذ قال القاضي عياض (٣٥) إن مالكا ﷺ وسائر الفقهاء من التابعين ومن بعدهم إلا من نُسب إلى بدعة، قالوا: الإيمان قول وعمل.

وإن التوقف في أمر التكفير لا يمنع من معاقبة المبتدع في الدنيا لمنع بدعته، وأن يُستتاب فإن تاب منها فقد سلم، وإلا قتل ردة.

وكتاب الله يبين ذلك، إذ نجد أصناف الخلق في القرآن الكريم ثلاثة:

الصنف الأول: الذين لا يقرون بالشهادتين وهم المشركون وأهل الكتاب وهم كفار قولاً واحداً.

الصنف الثاني: المؤمنون باطنًا وظاهرًا، وهم المؤمنون حقاً.

الصنف الثالث: ومن أقر بالشهادتين ظاهراً وكفر بهما باطنًا، وهم المنافقون يقيناً. وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة (٣٦).

وجاء في صحيح البخاري حديث ذكر فيه سبب دخول النساء النار: إنهن يكفرن! قيل: يا رسول الله: يكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان) (٣٧).

١٠٦ - التحل ١٠٦.

(٣٤) - التوبة ٦٦.

٣٥ - هو: القاضي عياض: هو بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي. إمام وقته ببلاد المغرب في الحديث وعلومه والنحو واللغة. وله مصنفات منها: مشارق الأنوار، وشرح كتاب مسلم. مات -رحمه الله- سنة أربع وأربعين وخمسمائة. ينظر: القيس في شرح موطأ مالك بن أنس، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣ هـ)، بتحقيق: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، نشر: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٢ م ج ١، ص ٤٩. و شذرات الذهب لابن العماد ١٣٨/٢.

٣٦

(٣٧) - رواه البخاري في باب بدء الوحي رقم (٢٩)، ينظر: الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، دار الشعب - القاهرة، ط ١، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج ١، ص ١٤.

وهذا يدلنا على أن تقسيم الكفر إلى درجات متفاوتة بين كفر أكبر وكفر أصغر، تقسيم متأثر عن سلف الأمة. وقد أدرج البخاري في كتاب الإيمان عدة أبواب للرد على الخوارج الذين يُكفِّرون المسلمين باقتراف الكبائر. منها:

باب "كفران العشير، وكفر دون كفر" وهذا التقسيم نفسه يجري في الشرك وفي النفاق وفي الفسق وفي الظلم الذي ورد في آيات سورة المائدة، وفي أوائل سورة البقرة..

أثر التسمية واللغة في مفهوم الكفر:

لقد درج الناس على تسمية بعض المعاصي كفراً ولو أنك استقرأت مصطلح " الكفر " لوجدته قد جاء في نصوص الوحيين، على وجوه عدة منها:

- ١- " الكفر الناقل عن الملة " .
- ٢- و " كفر النعمة " .
- ٣- و " كفر التبرؤ " .
- ٤- و " وكفر الجحود " .
- ٥- و " كفر التغطية " ، وكل ينظر إليه بحسب أصله اللغوي.

وبناء على هذا: فإنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الكفر بالعبد، أن يصير العبد كافرأ الكفر المطلق، الناقل عن الملة، ما لم يقيم به أصل الكفر، بناقض من نواقض الإسلام: الاعتقادية أو القولية أو العملية، فيصبح كافرأ^(٣٨).

كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان أصبح مؤمناً إلى أن يقوم به أصل الإيمان، فيعد مؤمناً.

فالواجب وضع النصوص في مواضعها وتفسيرها بحسب المراد منها، وعلى المكفِّر أن يحس بخطورة الأمر ودقته وأن يقف عند حده ويكَلِّ العلم إلى عالمه وأن يكفَّ عن الخوض في تكفير المسلمين. وأن يدع ذلك للعلماء الراسخين في العلم الشرعي والمشهود لهم بالخيرية والفضل والذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يبلغوا الناس ما علموه وأن يبينوا لهم ما أشكل عليهم من أمر دينهم امتثالاً لقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٣٩). وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ

(٣٨) - مذكورة ما نهى عنه الإسلام، عبد الله بن سفر العبدلي، ج ١، ص ٢٥. و درء الفتنة، الشيخ بكر أبو زيد، ج ١، ص ١٨.
(٣٩) - (آل عمران/ ١٨٧)

اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (٤٠) وقوله سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤١). فلم يأمر الله بالسؤال حتى أخذ سبحانه العهد والميثاق على العلماء بالبيان.

فهذه النصوص وغيرها فيها الوعيد الشديد لمن كَفَّرَ أحداً من المسلمين بغير حق، كما أن فيها التحذير من إطلاق التكفير إلاً ببيّنة شرعية، إذ هو حكم شرعي لا يصار إليه إلاً بالدليل، وليس بمجرد الهوى والرأي. وهذه الحماية الكريمة والحصانة العظيمة للمسلمين في أعراضهم وأديانهم من أصول الاعتقاد في ملة الإسلام (٤٢).

المطلب الثالث: منهج السلف في الموقف من التكفير

أولاً - موقفهم من الخوارج:

إن أصول العقيدة الإسلامية لم يقع عليها خلاف وهي تقوم أساساً على الإيمان بالله ﷻ وعلى تنزيهه وعلى وجوب طاعته، وعلى الإيمان برسول الله ﷺ ووجوب طاعته واستحباب الالتزام بسنته، وهذا ما يتمثل بالشهادتين اللتين يعدان مدخلاً للإسلام، وهما: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما فروع العقيدة الإسلامية وهي كثيرة جداً فقد وقع فيها الخلاف وكان حاداً في كثير من الأحيان، وقد وصل في بعض مراحل التاريخ الإسلامي إلى مرحلة التكفير، ولكن الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين بدءاً من صحابة رسول الله ﷺ إلى هذه الأيام كانت تعدّ مثل هذا الخلاف (خطأً) لا يصل إلى حد التكفير طالما أن المسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذلك التزاماً بالهدى النبوي الشريف الذي تواترت فيه الأحاديث الصحيحة التي تؤكد أنّ من قال لا إله إلا الله عصم نفسه من النار، ومن هنا ذكر العلماء أن المسلم إذا تكلم كلمة تحتل تسعاً وتسعين وجهاً من وجوه التكفير، وليس فيها إلا وجه واحد لعدم التكفير، فعلينا أن نأخذ بهذا الوجه إحساناً للظنّ بالمسلمين. فالإسراع إلى تكفير المسلمين بناء على الاختلاف في فروع العقيدة منهج يخالف نهج السلف الصالح ويخالف نهج العلماء المحققين (٤٣).

وإن فتنة التكفير من أول البدع والفتن ظهوراً في الإسلام وهي منبع الكثير من الانحرافات العقائدية والسلوكية والخلقية التي عانت منها الأمة المسلمة على مدى أربعة عشر قرناً قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله في الفتاوي: "أول البدع ظهوراً

(٤٠) - (البقرة/١٥٩)

(٤١) - (النحل/٤٣)

(٤٢) - ينظر: مذكرة ما نهى عنه الإسلام، عبد الله بن سفر العبدلي، ج ١، ص ٢٨. و درء الفتنة، الشيخ بكر أبو زيد، ج ١، ص ٢٠.

٤٣ - وهذا هو الموافق لقول أئمة السنة والجماعة: لا تكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب ولا بدعة عملية، وإن المتأول المخطئ غير كافر. ينظر: الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤ هـ)، بتحقيق: د. فؤاد حسين محمود، نشر: دار الأنصار - القاهرة، ط ١، ١٣٩٧ م، ص ٢٦. وغيرها من مصادر أهل السنة.

في الإسلام، وأظهرها ذمماً في السنة والأثار: بدعة الخوارج الحرورية^(٤٤)، فإن ذو الخويرة التميمي، قال للنبي ﷺ في وجهه: (إعدل فإنك لم تعدل)، حتى قال له المصطفى ﷺ (و يلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ و خسرتُ إن لم أعدل)، فقوله: فإنك لم تعدل جعل منه لفعل النبي ﷺ سفهاً و تركُّ للعدل، و قوله: أعدل أمر له لما أعتقده هو حسنة من القسمة التي لا تصلح، وهذا الوصف تشترك فيه البدع المخالفة للسنة، فقائلها لا بد أن يثبت ما نفتته السنة، أو ينفي ما أثبتته السنة، و يحسن ما قبخته السنة، أو يقبح ما حسنته، السنة وهذا عين الانحراف^(٤٥).

وقد اختلف في الحكم على الخوارج إلى قولين:

(١) الحكم بتكفيرهم.

(٢) الحكم عليهم بالفسق والابتداع والبغي.

وقد استند الذين كفروهم على ما ورد من أحاديث المروق المشهورة عند علماء الفرق؛ رادين الخوارج إلى سلفهم القديم (ذي الخويرة) وموقفه الخاطئ من رسول الله ﷺ، ثم موقف الخوارج أيضاً من الصحابة لاسيما الإمام علي ومعاوية وغيرهما.

أما الرأي الثاني والأرجح: وهو القول بعدم تكفير الخوارج؛ فأهل هذا الرأي يقولون: إن الاجترار على إخراج أحد من الإسلام ليس بالأمر الهين، نظراً لكثرة النصوص التي تحذر من ذلك إلا من ظهر الكفر من قوله أو فعله فلا مانع حينئذ من تكفيره بعد إقامة الحجة عليه.

ولهذا أحجم كثير من العلماء عن إطلاق هذا الحكم عليهم وقد اكتفوا بتفسيقهم، وأن حكم الإسلام يجري عليهم لقيامهم بأمر الدين- وأن لهم أخطاء وحسنات كغيرهم من الناس، ثم إن كثيراً من السلف لم يعاملوهم معاملة الكفار كما جرى لهم مع علي رضي الله عنه وعمر بن عبد العزيز؛ فلم تسبى ذريتهم وتغنم أموالهم^(٤٦).

وجملة موقف أهل العلم منهم كان على مذاهب:

١- فمنهم من يكفر مرتكب الكبيرة، على نحو ما كان يذهب إليه الخوارج من قبل، والمعتزلة، ومن شابههم في العصر الحديث، من الجماعات المتطرفة والتكفيرية كداعش وما شابهها.

٤٤ - هم فرقة من الخوارج نسبة إلى حروراء بلدة على دجلة والفرات لجأوا إليها، ينظر: مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلطان (المتوفى: ١٤٢٢هـ) ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م. ج١، ص١٠٦.

(٤٥) - الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٤هـ، بتحقيق: محمد سيد كيلان. ج١، ص٢٠.

(٤٦) - فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب بن علي عواجي، ج١، ص٢٠٨.

٢- ومنهم من يقول أنا لا أكفر مرتكب الكبيرة، بل أكفر المُصِرَّ عليها فقط.
 ٣- ومنهم من يقول: إن جماهير الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام ويُسمَّون "المسلمين" اليوم، هم ليسوا بمسلمين. وأن جميع أفراد الأمة، كفار مرتدون، سواء من كان منهم ملتزماً بأركان الإسلام أم لا، ويستوي في ذلك العالم والجاهل، والذكر والأنثى. وأن الدار دار حرب أو دار ردة، وأن الجمعة والجماعة في المساجد لا تصح لأنها صلاة وراء كفار ومرتدين، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب في مجتمع مرتد، أو أمة مرتدة أو كافرة بل يُدْعَوْنَ إلى "لا إله إلا الله محمد رسول الله" (٤٧).

وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يلزم في "المجتمع المسلم" والأمة المسلمة "يعني دار الإسلام" فقط.

المبحث الثاني: أثر الموقف العام من أسس وثوابت الدين في شيوع هذه الظاهرة

المطلب الأول: الموقف الشرعي من هذه الظاهرة

إن قلة بضاعة هؤلاء الشبان الغيورين من فقه الإسلام وأصوله، وعدم تعمقهم في العلوم الإسلامية واللغوية، جعلهم يأخذون ببعض النصوص دون بعض، أو يأخذون بالمتشابهات، وينسون المحكمات، أو يأخذون بالجزئيات ويغفلون عن الكلّيات، أو يفهمون بعض النصوص فهما سطحياً سريعاً، إلى غير ذلك من الأمور اللازمة لمن يتصدى للفتوى. ممّا أوقعهم في الغلو وتكفير دهماء المسلمين.

فلا بد من طلب العلم قبل التعبد والجهاد، حتى لا ينحرف عن طريق الله من حيث لا يدري.

وقد قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، فهو يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا (٤٨).

ففي حديث عبادة بن الصامت عند البخاري، أن النبي ﷺ قال: [وحواله عُصْبَةٌ من أصحابه: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له،

(٤٧) - جملة هذه الآراء نقلها عنهم وأجزها الشيخ يوسف القرضاوي، ينظر: فتاوى معاصرة، ج ١، ص ٩٦.
 (٤٨) - جامع بيان العلم وفضله، أبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، بتحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٢٧١.

ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه) [(٤٩).

والحديث واضح الدلالة على أن ارتكاب الموبقات التي اشتملت البيعة على اجتنابها لا يخرج صاحبها من الإسلام، بل من عوقب عليها كانت العقوبة طهارة وكفارة له، وإلا فهو في المشيئة.

ففي الحديث رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ورد على المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة، لأن النبي ﷺ أخبر بأنه تحت المشيئة ولم يقل: لا بد أن يعذبه، وفيه الإشارة إلى الكف عن الشهادة بالنار على أحد إلا من ورد النص فيه بعينه. والتأويل المعتبر في هذا المقام هو ما كان له وجه في الشرع واللغة العربية، أما إن كان لا يعتمد على شيء من القرائن الشرعية أو اللغوية فهو غير معتبر شرعاً كتأويلات الباطنية ونحوهم. وهذا التأويل إنما يختص بأهل الاجتهاد دون غيرهم من المتقولين على الله بالجهل والهوى، وذلك أن المجتهد قد يترك مقتضى نص لنص آخر يراه أقوى منه، كمن اعتقد من الصحابة حل الخمر مستدلاً بقوله ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٠)، فلما رفع أمرهم إلى عمر بن الخطاب وتشاور الصحابة فيهم، اتفق عمر وعلي وغيرهما من علماء الصحابة رضي الله عنهم على أنهم إن أقرروا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على الاستحلال قتلوا. فلم يكفرهم الصحابة من أول وهلة لتأويلهم، بل أجمعوا على أن يبينوا لهم خطأ استدلالهم فإن أصروا قتلوا ردة، فلما استبان للمتأولين خطأ استدلالهم رجعوا وتابوا (٥١).

المطلب الثاني: أصول وقواعد الدخول في الإسلام

القاعدة الأولى: أن الإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين:

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن أقر بالشهادتين بلسانه فقد دخل في الإسلام، وأجريت عليه أحكام المسلمين، وإن كان كافراً بقلبه، لأننا أمرنا أن نحكم على الآخرين بالظاهر، وأن نكل سرائرهم إلى الله. والدليل على ذلك:

١. أن النبي ﷺ كان يقبل الإسلام ممن أقر بالشهادتين، ولم ينتظر حتى يأتي وقت الصلاة، أو حتى يؤدي الزكاة، أو حتى يصوم شهر رمضان... ثم يحكم له بالإسلام.

(٤٩) - رواه البخاري في باب (بدء الوحي) رقم: ٣٨٩٢، ينظر: الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حسب ترفيم فتح الباري، دار الشعب - القاهرة، ط ١، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج ٥، ص ٧٠.
(٥٠) المائدة: ٩٣.

(٥١) - كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس، توفي ٧٢٨هـ بتحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ج ١٢، ص ٤٩٩.

(٥٢). ومن المعلوم بالضرورة: أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاء يريد الدخول في الإسلام، الشهادتين فقط، فيعصم دمه بذلك، ويجعله مسلماً. ولم يكن النبي ﷺ يشترط على من جاءه يريد الإسلام أن يلتزم الصلاة والزكاة، بل قد روي أنه قبل من قوم الإسلام واشترطوا عليه ألا يزكوا.

٢- حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عند البخاري وغيره: أنه قتل رجلاً شهراً عليه السيف فقال: (لا إله إلا الله) فأنكر عليه النبي ﷺ أشد الإنكار، وقال: أقتلته بعدما قال: (لا إله إلا الله)؟ فقال: إنما قالها تعوداً من السيف؟ فقال: هلا شقت عن قلبه (٥٣)؟!

٣- حديث أبي هريرة عن أنس: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) (٥٤). وفي رواية: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وما جئت به. وفي رواية: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

والمراد بـ "الناس" في الحديث مشركوا العرب. كما قال العلماء، وكما فسره أنس في الحديث السابق، لأن أهل الكتاب يقبل منهم الجزية بنص القرآن.

والشاهد هنا: إنهم إذا قالوا لا إله إلا الله، دخلوا بها في الإسلام، بدليل عصمة دمائهم وأموالهم، لأن العصمة إما بالإسلام أو بالعهد والذمة، ولا عهد ولا ذمة هنا، فلم يبق إلا الإسلام.

ثم قوله: عصموا مني دماءهم وأموالهم، يدل على أنه كان عند هذا القول مأموراً بالقتال، وهذا كله بعد هجرته إلى المدينة. أي بعد نزول ﴿أَنْ لِّلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٥٥) والإذن بالجهاد.

وهذه بعض الأدلة على سهولة الدخول في الإسلام وحكمة النبي ﷺ في الدعوة:

١- ماروي عن جابر رضي الله عنه قال: اشترطت تكيف على رسول الله ﷺ: أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، وأن رسول الله ﷺ قال: سيتصدقون، ويجاهدون (٥٦).

(٥٢) - وقد روى سفيان بن عيينة، أحد أئمة الحديث في زمنه، أنه قال: كان هذا في أول الإسلام قبل فرض الصلاة والصيام والزكاة والهجرة. ينظر: جامع العلوم والحكم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ج١، ص٢٢٨.

(٥٣) - رواه البخاري في باب (بدء الوحي) حديث رقم (٥٨٢٤)، الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج٣، ص١٠٣٩.

(٥٤) - مسند الإمام الشافعي، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس (المتوفى: ٢٠٤هـ)، رتبته: سنجر بن عبد الله الجاولي، (المتوفى: ٧٤٥هـ)، بتحقيق: ماهر ياسين فحل، شركة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٣٣.

(٥٥) - الحج: ٣٩.

٢- وما روي عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أتى النبي ﷺ فأسلم على أن لا يصلي إلا صلاتين، فقبل منه رسول الله ﷺ^(٥٧).

٣- وما حصل لحكيم بن حزام قال: بايعت النبي ﷺ على أن لا أخرج إلا قائماً. قال أحمد: معناه أن يسجد من غير ركوع. قال ابن رجب: وأخذ الإمام أحمد بهذه الأحاديث وقال: يصح الإسلام على الشرط الفاسد، ثم يلزم بشرائع الإسلام كلها بعد ذلك^(٥٨).

والذي يهمنا من هذه النصوص أمران:

الأمر الأول: أن الدخول في الإسلام إنما يكون بالشهادتين، وإذا اقتصر في بعض الأحاديث على شهادة التوحيد، فهو إما من باب الاكتفاء أو الاختصار من بعض الرواة. وإما لأن مشركي العرب المقصودين بكلمة "الناس" في الحديث، لم يكونوا ليقرؤا بشهادة التوحيد إلا إذا شهدوا لمن جاء بها، ودعا إليها، وهو محمد رسول الله ﷺ.

ولهذا جاء عن بعض السلف: الإسلام الكلمة. يعني: كلمة الشهادة. وأما الصلاة والصيام وسائر شرائع الإسلام وفرائضه فإنما يطالب بها بعد أن يصبح مسلماً إذ هي لا تصح ولا تقبل إلا من مسلم. أما الكافر فلا تقبل منه لفقدانه شرط القبول، وهو الإسلام^(٥٩).

والأمر الثاني: ما دلت عليه الأحاديث الأخيرة التي ذكرها ابن رجب، والتي رواها أحمد بن حنبل من المرونة وسعة الأفق التي كان يعالج بها النبي ﷺ الأمور، ولا سيما مع الداخلين في الإسلام.

فقد قبل من بعضهم ما رفضه من غيرهم. فقد جاء عن بشير بن الخصاصية أنه أراد أن يبايع النبي ﷺ على الإسلام دون أن يتصدق أو يجاهد، فكف يده عنه وقال: يا بشير، لا جهاد ولا صدقة! فبم تدخل الجنة إذن؟!، ولكنه قبل هذا من ثقيف، لعلمه بأنهم لن يجمدوا على هذا الموقف، وأنهم إذا حسن إسلامهم سيصنعون ما يصنع

(٥٦) - رواه أحمد في مسنده برقم (١٧٩١٣)، ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ج ٢٩، ص ٤٣٩.

(٥٧) - فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥ هـ) حديث رقم (٥٢٤)، بتحقيق: عدد من الباحثين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية ومكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٥٨) - جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ، ج ١، ص ٨٤.

(٥٩) - فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي، ج ١، ص ١٠٤.

سائر المسلمين، ولهذا قال في ثقة عنهم: سيتصدقون ويجاهدون. نستنتج من ذلك أن الأمر يعود إلى تقدير ولي الأمر وحكمته^(٦٠).

القاعدة الثانية: أن من مات على التوحيد أي: على (لا إله إلا الله) استحق عند الله أمرين:

الأول: النجاة من الخلود في النار، وإن اقترف من المعاصي ما اقترف، سواء منها ما يتعلق بحقوق الله كالزنا، أو بحقوق العباد كالسرقة. وإن دخل بذنوبه النار فسيخرج منها لا محالة.

الثاني: دخوله الجنة لا محالة، وإن تأخر دخوله بسبب عذابه في النار لمعاص لم يتب منها، ولم تكفر عنه لسبب من الأسباب.

والأدلة على ذلك كثيرة وظاهرة يعسر إحصاؤها فمن الكتاب مثلاً ما جاء في صفات عباد الرحمن من سورة الفرقان^(٦١). ومن السنة التي هي مبينة للقرآن ومفسرة له الأحاديث الآتية:

١- قوله ﷺ: (من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان منه من عمل)^(٦٢).

٢- وما روي عن أبي ذر أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: (ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة)^(٦٣).

٣- (إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) أي أنه لم يقلها لمجرد أن يعصم بها دمه وماله كما فعل المنافقون في عهد النبوة^(٦٤).

٤- وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج من النار من قال: (لا إله إلا الله) وكان في قلبه من الخير ما يزن برة (يعني حبة قمح)^(٦٥)).

(٦٠) - ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ج ٢٩، ص ٤٣٩..

٦١ - قوله سبحانه: {والذين لا يدعون مع الله .. الخ} السورة. إن كان غير مشرك وغير مستحل لما حذر منه الله سبحانه (٦٢) - التخریج لصحيح الحديث، أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن منصور أبو الحسن المجاهد المعروف بالعتيقي (المتوفى: ٤٤١هـ)، مما أخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب البرقاني الخوارزمي من أصول أبي الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن منصور العتيقي، بتحقيق: أبي عبد الباري رضا بوشامة الجزائري، دار بن حزم، الرياض، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ج ١، ص ٤٠.

(٦٣) - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى:

١٣٧٧هـ)، بتحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط ١٠، ١٤١٠، ١٩٩٠ م، ج ٢، ص ١٥٥.

(٦٤) - حاشية الصاوي على الشرح الصغير، أحمد بن محمد الصاوي (المتوفى: ١٢٤١هـ)، ج ١١، ص ٣٢٨.

(٦٥) - ينظر: مختصر صحيح الإمام البخاري، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ج ١، ص ٣٣.

٥- وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي ذر، أن النبي ﷺ قال: (أتاني جبريل فبشرني: أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق) (٦٦).

٦- وفي صحيح مسلم من حديث الصنابحي عن عبادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، حرم الله عليه النار) (٦٧).

وغير هذه الأحاديث كثير، ودلالاتها صريحة على أن كلمة الشهادة موجبة لدخول الجنة والنجاة من النار (٦٨).

القاعدة الثالثة: أن الإنسان بعد أن يدخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين، يصبح - بمقتضى إسلامه- ملتزما بجميع أحكام الإسلام، والالتزام يعني الإيمان بعدالتها وقدسيتها، ووجوب الخضوع والتسليم لها، والعمل بموجبها. أعني الأحكام النصية الصريحة الثابتة بالكتاب والسنة.

فليس له خيار تجاهها بحيث يقبل أو يرفض، يأخذ أو يدع، بل لا بد أن ينقاد لها مسلما راضيا، محلا لحلالها، ومحرم حرامها، معتقدا بوجوب ما أوجبت، واستحباب ما أحببت.

يقول ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٦٩)، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٧٠)، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٧١).

ومن المهم أن نعرف هنا، أن من أحكام الإسلام من الواجبات والمحرمات والعقوبات وغيرها من التشريعات، ما ثبت ثبوتا قطعيا، وأصبح من الأحكام اليقينية، التي لا

(٦٦) - رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، حديث رقم (٦٤٤٤)، ينظر: الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، دار الشعب - القاهرة، ط ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج ٨، ص ١١٨.

(٦٧) - رواه مسلم في باب من لقي الله..، حديث رقم (٤٧)، ينظر: مسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج ١، ص ٥٧.

(٦٨) - المراد بدخول الجنة: دخولها ولو في النهاية، بعد استحقاق العذاب في النار زمنًا ما. وكذلك المراد بالنجاة من النار: النجاة من الخلود فيها.

٥٦٩ - الأحزاب ٣٦.

٥٧٠ - النور ٥٢.

٥٧١ - النساء ٦٥.

يتطرق إليها ريب ولا شبهة، أنها من دين الله وشرعه، وهي التي يطلق عليها علماء الإسلام اسم "المعلوم من الدين بالضرورة"^(٧٢).

فمن أنكر شيئاً من هذه الأحكام "المعلومة من الدين بالضرورة أو استخف بها واستهزأ فقد كفر كفراً صريحاً، وحكم عليه بالردة عن الإسلام. وذلك أن هذه الأحكام نطقت بها الآيات الصريحة، وتواترت بها الأحاديث الصحيحة، وأجمعت عليها الأمة جيلاً بعد جيل، فمن كذب بها فقد كذب نص القرآن والسنة. وهذا من الكفر.

ولم يستثن من ذلك إلا من كان حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة عن أمصار المسلمين، ومظان العلم، فهذا يعذر إذا أنكر هذه الضروريات الدينية، حتى يعلم ويفقه في دين الله، فيجري عليه بعد ذلك ما يجري على سائر المسلمين^(٧٣).

والقاعدة الرابعة: أن المعاصي والكبائر - وإن أصر عليها صاحبها ولم يتب منها - قد تقدر بالإيمان وتنقصه، ولكنها لا تنقضه من أساسه، ولا تنفيه بالكلية. والدليل على ذلك:

١. إنها لو كانت تهدم الإيمان من أصله، وتخرج صاحبها إلى الكفر المطلق، لاستوتت المعصية والردة في الحكم وأصبحتا شيئاً واحداً، ولأصبح العاصي مرتداً، ووجب أن يعاقب عقوبة المرتد، ولم تنتوع عقوبات الزاني والسارق وقاطع الطريق وشارب الخمر والقاتل. وهذا مرفوض إجماعاً.

٢. إن القرآن نص على أخوة القاتل لأولياء المقتول في آية القصاص حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾^(٧٤).

٣. إن القرآن أثبت الإيمان للطائفتين المقتلتين في قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾^(٧٥) فأنبت لهم الإيمان والأخوة الدينية مع وجود الاقتتال^(٧٦)، ومع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم وجوه بعض)^(٧٧).

(٧٢) - وعلامتها أن الخاصة والعامة يعرفونها، ولا يحتاج إثباتها إلى نظر واستدلال وتوثيق، وذلك مثل فرضية الصلاة والزكاة، وغيرها من أركان الإسلام وحدوده وأحكامه، وما شابهها.
(٧٣) - القول المفيد على كتاب التوحيد، العلامة محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ٢، ١٤٢٤هـ، ج ١، ص ١٧٤.

(٧٤) - البقرة: ١٧٨

(٧٥) - الحجرات ٩-١٠.

(٧٦) - شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، (المتوفى: ٧٩٢هـ)

بتحقيق: أحمد شاكر، نشر وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ١ - ١٤١٨هـ،

ج ١، ص ٣٠٢.

(٧٧) - رواه البخاري في باب من انتظر حتى تدفن، حديث رقم (٤٤٠٢)، ينظر: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، بتحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ، ج ٥، ص ١٧٦.

وقوله: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)^(٧٨) وبهذا الحديث الأخير استدلل البخاري -فيما استدلل- بأن المعاصي لا يكفر صاحبها، ولا سيما إذا كان الاقتتال بغير تأويل سائغ، لأن الرسول سماهما مسلمين مع توعدهما بالنار^(٧٩).

٤. إن حاطب بن أبي بلتعة ارتكب خطيئة تشبه ما يسمى الآن "الخيانة العظمى" إذ أراد نقل أخبار الرسول وتحركات جيشه إلى قريش قبيل فتح مكة، مع حرص الرسول ﷺ على كتمان ذلك عنهم. وقال له عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فقد نافق. واعتذر الرسول ﷺ بأنه من أهل بدر، ولم يعد عمله ناقلاً له من الإيمان إلى الكفر. ونزل القرآن يؤكد ذلك إذ نزل في شأنه أول سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٨٠). فخاطبه الله فيمن خاطب بعنوان الإيمان^(٨١).

٥- وقريب من ذلك ما نزل في شأن الذين قذفوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومنهم مسطح بن أثاثة، وكان من أهل بدر^(٨٢). وإن قيل: إن مسطحاً وأمثلة تابوا، إلا أن الله لم يشترط (التوبة) في الأمر بالعفو عنهم والصفح والإحسان إليهم.

٦. ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة في قصة شارب الخمر، الذي أمر النبي ﷺ بضربه فضر به، فلما انصرف، قال بعض القوم: أخزاك الله فقال: النبي ﷺ: (لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان) وفي رواية: (لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم، ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه)^(٨٣). فهذه هي النظرة الشرعية المتسامحة إلى مرتكب الكبيرة، فهي تأمر بضربه، ولكنها لا ترضى بلعنه وطرده من رحمة الله، ولا إخراجة من نطاق المؤمنين، بل تأمرهم أن يدعوا له بالمغفرة والرحمة، ويشعروه بالأخوة والمحبة، والحرص على هدايته، فعسى أن يرده ذلك عن غوايته.

(٧٨) - رواه البخاري في باب من انتظر حتى تدفن، حديث رقم (٦٨٧٥)، ينظر: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، بتحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ، ج ٩، ص ٤.

(٧٩) - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ هـ، بتحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ج ١، ص ٨٥.

(٨٠) - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ هـ، بتحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ج ٨، ص ٣٣٥.

(٨١) - ((وكان أبو بكر حلف ألا يصله، فأنزل الله في شأنه (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم)).

(٨٢) - رواه ابن حبان في باب ذكر الزجر، حديث رقم (٥٧٣٠)، ينظر: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مغبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ج ١٣، ص ٣٧.

٧. وأكثر من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب: أن رجلا على عهد النبي ﷺ، كان اسمه عبدالله وكان يلقب (حمارا) وكان يضجك رسول الله ﷺ قد جلده في الشراب، فأتى به يوما، فأمر به فجلد. فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: (لا تلعنوه لقد علمت أنه يحب الله ورسوله). فهذا مع إيمانه الشرب، وإصراره عليه، وإنكاره منه، حتى نقل ابن حجر في الفتح عن ابن عبد البر أنه جلد خمسين مرة، ينهى النبي عن لعنه، ويقرر أنه يحب الله ورسوله. وتكفيرى هذا الزمان يحكموا على متعاطي الدخان بالقتل^(٨٤).

٨. الأحاديث السابقة أوجبت لمن قال: لا إله إلا الله الجنة وإن زنى وإن سرق.

٩. ما صح واستفاض عن النبي ﷺ أنه سيشفع لأهل الكبائر من أمته. وهذا الأخير يدل على حكمين مهمين:

أولهما: أنه لم يخرجهم باقتراف الكبيرة عن حظيرة أمته.

ثانيهما: أن الله سيرحمهم بهذه الشفاعة، إما بإعفائهم من دخول النار أصلا، وإن استوجبوها بذنوبهم. وإما بإخراجهم منها لأنهم غير مخلدين فيها قطعا، وأن كل ما سوى الشرك يقع تحت إمكان المغفرة والمشيمة.

إذ إن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك بالله ﷻ، وما عداه من الذنوب (صغرت أم كبرت) فهي تحت المشيمة.

قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٨٥) ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٨٦). والمراد بالشرك في الآية وأمثالها: الشرك الأكبر، وهو اتخاذ إله أو آلهة مع الله ﷻ، وهو المراد بهذا اللفظ حين الإطلاق.

المطلب الثالث- بعض العوامل التي ساعدت على صناعة التكفير

في ظل اضطراب الأمة وانشغالها بنفسها، وفي ظل الظروف السيئة المختلفة التي يعاني منها عالمنا الإسلامي تعددت وسائل صناعة التكفير إذ أنشئت وسائل الإعلام مختلفة ورصدت لها مبالغ هائلة لتوجيه الرأي العام، يستوي في ذلك وسائل الإعلام الإسلامية من خلال التحريض وإثارة الفتنة بين المسلمين، وغير الإسلامية من خلال ما تبث من مشاهد وأعمال تخدش حياء المسلمين وكرامتهم، وتضر

(٨٤) - يقول الحافظ بن حجر في بيان فوائد هذا الحديث في "الفتح": (أ) فيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، والأمر بالدعاء له. (ب) وفيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، لأنه ﷺ أخير بأن المذكور يحب الله ورسوله، مع وجود ما صدر عنه. (ج) وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله. (د) ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم أن نفي الإيمان - عن شارب الخمر - (أي في حديث: لا يشرب الخمر وهو مؤمن) - لا يراد به زواله بالكلية، بل ينفي زواله بالكلية، ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، بتحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ج١٢، ص٧٧.

(٨٥) - النساء٤٨.

(٨٦) - النساء١١٦.

بأخلاقهم وعقائدهم وثوابتهم (٨٧). وفوق أثر وسائل الإعلام المشبوهة في صناعة التكفير فإن هناك أسباباً مباشرة أدت إلى صناعة التكفير ومن أهمها:

١- إشاعة انتشار مظاهر الخروج على الدين وتعاليمه عبر وسائل الإعلام في كثير من المجتمعات، واستنطالة أصحابها على ثوابت الدين، والعمل على نشر الفساد في المجتمعات، والهجوم على أهل العلم دون أن يزرهم أحد عن هذا المسلك.

٢- أضف إلى ذلك إعراض بعض الحكومات عن تحكيم الشريعة، واستبدال ذلك بالقوانين الوضعية المستوردة من الشرق والغرب.

٣- الاضطهاد والمعاملة الوحشية التي واجهها بعض المسلمين بسبب المطالبة بتطبيق الشريعة، وإلغاء القوانين الوضعية، وإن التفتن في إهانة هؤلاء والاستخفاف بإنسانيتهم ومحاولة تحطيم أفكارهم دون مراعاة لأحكام الشرع وحقوق الإنسان ولد عند هؤلاء فكر التكفير^(٨٨)، والاستهانة بمحارم الله وأحكام شرعه، وعدم الأخذ على يد المكابر والمعلن بقالة الكفر، وأطره على الحق أطراً بقوة البرهان والقانون. لأن الاضطهاد لا يولد إلا اتجاهات منحرفة تعمل تحت الرماد بعيداً عن مجالس العلم والحوار المفتوح.

٤ - الجهل وقلة الفقه في الدين، وضعف العلم بالشريعة، فكثير من هؤلاء الغلاة في التكفير وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب الأخذ ببعض النصوص دون البعض، والاعتماد على المجملات والمتشابهات دون المحكمات والواضحات، مع غياب واضح للمنهج السليم في فهم النصوص والاستدلال بها، أضف إلى ذلك الجهل الذريع وربما الجهل المركب بهذه المسألة المهمة، سيما معرفة الكفر في موارد أدلة الوحي الشريف، والفرق بين الكفرين: الأكبر والأصغر، وحال أصحابها (من جهة اجتماع الشروط وانتفاء الموانع)، والفرق بين الكفر المطلق والكفر المعين، والكفر الدنيوي والحكم لأصحابه بالخلود الأخرى بالنار.

٥- إن من أسباب انتشار ظاهرة الغلو في التكفير الغلو أو التطرف اللاديني والعلماني الذي دأبت عليه بعض الحكومات^(٨٩). كالتعرض لثوابت الدين وإعلان الحرب على الحجاب الإسلامي ولباس الحشمة، وتأييد بعض الحكومات الدعوات العلمانية في دعوى المساواة بين الرجل والمرأة في الميراث والحقوق، فأخذت تشجعها وتغض

^{٨٧} - أنظر مثلاً وسائل الإعلام الطائفية والمذهبية والحزبية والقومية التي ألهمت مشاعر المسلمين وشوهت عقائدهم فاختلفتهم وألقت بهم في مهاوي التكفير والتدمير.

^{٨٨} - ويؤكد هذا أن الغلو في التكفير عرفت به طوائف خرجت من المعتقلات في مصر في عقد السبعينيات وما بعدها.

^{٨٩} - كما فعلت الحكومات المصرية المتعاقبة، والحكومات الأخرى كتونس وليبيا والجزائر وسوريا وغيرها فضلاً عما تفعله الحكومات الغربية، وقد أرادت بعض هذه الدول أن تصدر قانوناً يفصل فيه كل من يصلي من ضباط الجيش، أو من موظفي الدولة، أو كل من تتحجب زوجته أو ابنته محجبة وعذوه يتصرف ضد الدستور.

الطرف عنها ممّا تسبب في نشوء ظاهرة التطرف الديني ومنه التطرف في التكفير. مع الأخذ بالاعتبار أن كل سبب من هذه الأسباب يحتاج إلى بسط، العرض والتحليل وضرب الأمثلة والتدليل.. إلخ.

٦- اتباع الهوى، والأغراض النفسية في تكفير المخالف وذمه والقبح في عرضه بالكفر دون تبصر بالعلم، وتورع بالديانة..

٧- اتباع المذاهب البدعيّة، والأقوال الشاذّة، وتقليد الأصاغر في العلم والدين في إطلاق كلمة الكفر على الدول والمجتمعات والأفراد.

و ممّا تقدم يتبيّن أن ظاهرة التكفير هي عَرَضٌ لمرض، والمرض هو تفرق الأمة، والتفرق سببه اتباع مذاهب الناس، ومعرضين عمّا كان عليه سلفنا الصالح.

المبحث الثالث: الآثار المترتبة على انتشار ظاهرة التكفير

المطلب الأول: الأثر الميداني لخطورة تكفير المسلمين

أولاً – آثاره العامّة:

من آثار هذا المسلك اختلال الأمن العام على الفرد والمجتمع، وهي الضروريات الخمس التي أجمعت عليها الأمة في حفظ المجتمعات واستقرارها. وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه)^(٩٠)، وفي حجة الوداع في يوم عرفة قال: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)^(٩١). وقد عانى كثير من المسلمين من ويلات هذه النهج الخاطيء فَرُوع الأمنون واستُحِلَّت دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وانتشرت المذاهب البدعية، واتبع الناس الأقوال الشاذة، وَعَمَدُوا إلى تقليد الأصاغر في العلم والدين، وتساهلوا في إطلاق الكفر على الدول والمجتمعات والأفراد، وكثرت الفتن وعمّ الاضطراب شتى المجتمعات حتى شمل غير المسلمين، فشوهوا صورة الإسلام الصحيح في نظر الآخرين، واستغل هذا الأمر اعداء الإسلام إذ صوروا لغير المسلمين أن دين الإسلام دين إرهاب وقتل وسرقة ونهب، وقد بلغ الأمر ببعض المكفرين أن استحلوا أموال العامة وسعوا إلى ائتلاف ما أمكن اتلافه وتدمير ما أمكن تدميره، ومحاولة زعزعة الأمن وإخافة الأمنيين وإيذائهم.

أمّا عن تأثير ذلك على من وقع في التكفير من أفراد المجتمع أو الجماعات الإرهابية، فإنهم يصبحون مطية لغيرهم من شياطين الإنس، والجن، فيستملونهم في تكفير الفرد

(٩٠) - رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة حديث رقم (٢٥٦٤)، ينظر: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ١٩٨٠.
(٩١) - رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة حديث رقم (٢٥٦٤)، ينظر: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ١٩٨٠.

المجتمع فيشبهون سلاحهم ضدهم بدعاوى دينية وشرعية، فيفسدون أكثر ممَّا يصلحون، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: " ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله" (٩٢). وغالب دعاوى التكفير تطلق من دون تبصّر بالعلم ومن دون ورع بالديانة وإنما لدوافع نفسية وأغراض شخصية. وهذا الصنف من المكفرين يريد أن يشكل العالم الإسلامي وفق رؤيته ومزاجه ولا يريد أن يخالفه أحد في هذه الرؤية، ومن خالفه فقد حكم عليه بالكفر والردة، فلسان حاله يقول ﴿وما علمت لكم من إله غيري﴾ ﴿وما أريكم إلا ما أرى﴾، ولهذا جاءت نصوص الوحيين الشريفين محذرة من تكفير أحد من المسلمين قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَبُّوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٩٣)

وفي عموم قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٩٤)

وقد تواترت الأحاديث النبوية في النهي عن تكفير المسلم بغير حق، منها: حديث أبي ذر -رضي الله عنه- أنه سمع النبي ﷺ يقول " لا يرمي رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك" (٩٥). وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: "أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما" (٩٦). وعن أبي ذر -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول "ومن دعا رجلا بالكفر، أو قال: يا عدو الله، وهو ليس كذلك، إلا حار عليه" (٩٧). ومعنى حار عليه: رجع عليه. وأكد هذا الموقف رسول الله في خطبة الوداع وغيرها في حرمة المسلم وماله وعرضه.

ثانياً - آثاره الخاصة:

إن الحكم بالكفر على إنسان ما، هو حكم في غاية الخطورة، لما يترتب عليه من الآثار الآتية:

١. التفريق بين المتهم وزوجته، إذ يجب أن يفرق بينهما، لأن المسلمة لا يصح أن تكون زوجة لكافر بإجماع الأمة.

(٩٢) - الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، بتحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ١٤٠٧، ١٤٥٣، ١٩٨٧م ج ٥، ص ٢٢٦٤.

(٩٣) النساء ٩٤

(٩٤) الأحزاب ٥٨

(٩٥) - رواه البخاري عن أبي ذر في باب النهي عن السب، حديث رقم (٥٦٩٨)، ينظر: الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، بتحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج ٥، ص ٢٢٤٧.

(٩٦) - أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر، ينظر: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، رقم (١٤٠٥)، تأليف: محمد بن فتوح الحميدي، بتحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، ط ٢، ج ٢، ص ١٩٧.

(٩٧) - رواه مسلم عن أبي ذر، في باب حال من رغب عن أبيه، حديث رقم (١١٢)، ينظر: صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجبل بيروت، دار الأفق الجديدة، - بيروت، ج ١، ص ٥٧.

٢. عزله عن أولاده، لأنه لا يؤتمن عليهم ويخشى أن يؤثر عليهم بكفره، وهم أمانة في عنق المجتمع الإسلامي كله، ومن طريف ما يذكر أن بعض الكفرة في العالم الغربي إذا شعروا بأن الأب يقسر أبناءه على الإسلام يفصلون أبناءه عنه ويحرمونه من أبوتهم.

٣- إنه فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامي، بعد أن مرق منه وخرج عليه بالكفر الصريح، والردة البواح، ولهذا يجب أن يقاطع، ويفرض عليه حصار أدبي من المجتمع حتى يفيق لنفسه، ويعود إلى رشده.

٤- إنه يجب أن يحاكم أمام القضاء الإسلامي، لينفذ فيه حكم المرتد، بعد أن يستتبيه ويزيل من ذهنه الشبهات، ويقيم عليه الحجة.

٥. إنه إذا مات لا تجرى عليه أحكام المسلمين، فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث، كما أنه لا يرث إذا مات مورث له.

٦- إنه إذا مات على حاله من الكفر يستوجب لعنة الله وطرده من رحمته، والخلود الأبدى في نار جهنم.

وهذه الأحكام الخطيرة توجب على من يتصدى للحكم بتكفير خلق الله أن يطيل النظر مرات ومرات قبل أن يصدر حكمه على عباد الله ويرميهم بكلمة الكفر^(٩٨).

المطلب الثاني: أثر الحركات والمذاهب الفكرية الرافضة لشريعة الإسلام

من دواعي انتشار هذا الفكر واستفحاله المجاهرة بالكفر من دون استحياء، ومسّ الثوابت الفكرية والعقائدية للمسلمين ومن الحكمة أن نكف عمّن ظاهرهم الإسلام وإن كان باطنهم خراباً يباباً من الإيمان، فإن هؤلاء يسمون في عرف الإسلام "المنافقون" الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، أو لم تصدق أعمالهم أقوالهم، فلهم في الدنيا أحكام المسلمين بمقتضى ظاهرهم، وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، بموجب ما يبطنونه من الكفر، وما دام الإسلام لا يقبل إلا ما كان طيباً ولا يقبل نظام الشراكة مع المدارس والمذاهب الهدامة قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي﴾^(٩٩).

فالذين تحدوه وخالفوا أمره وكفروا به وناصروه العدا على مر التاريخ الأصناف الآتية:

(٩٨) - الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد الأثري، بتحقيق: عبد الرحمن بن صالح المحمود، ج ١، ص ٢٢٢. وفتاوى معاصرة، يوسف القرظاوي، ج ١، ص ١٠١. الكافرون ٦.

١- ظهور موجة من الإلحاد والملحدون ومن أبرزهم الشيوعيون الذين يؤمنون بالشيوعية كفلسفة ونظام حياة، وهم القائلون: ((الدين أفيون الشعوب))، ويخسون الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة في العصر الحديث.

٢- العلمانيون، وهم الذين يرفضون جهره شرع الله. وينادون بفصل الدين عن الدولة، وإذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وامتنعوا، وقد جاهرُوا بعداوتهم لمن يدعون إلى تحكيم شرع الله.

٣- أصحاب النحل والزندقة التي مرقت من الإسلام مروقا ظاهراً منذ صدر الإسلام ثم استيقظت من جديد بسبب ضعف الأمة وغياب دولة الخلافة (١٠٠).

وقد صنف العلماء الكفار على صنفين:

الصنف الأول: الكفار كفراً أصلياً، وهم كل من لم يدخل في دين الله الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ من اليهود والنصارى والدهربيين والوثنيين والملحدين وغيرهم من أمم الكفر الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (١٠١)، والذين قال الله فيهم ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١٠٢). والذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ (١٠٣) وهؤلاء الكفار كفراً أصلياً لا فرق في الحكم عليهم بالكفر، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، أحياء أو أمواتاً كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، وهؤلاء لا يجب علينا قتالهم أو استهدافهم ما لم يقاتلوا المسلمين أو يغزوهم في عقر دارهم.

الصنف الثاني: المسلم الذي يرتد بعد إسلامه بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم:

(١٠٠) - مثل الدروز والنصيرية، وأمثالهم من الفرق الباطنية، وذلك لإنكارهم قطيعات الإسلام وأساسياته، وما علم منه بالضرورة. ومثلهم في عصرنا: البهائية، التي هي دين جديد قائم برأسه، ويقاربه القاديانية التي جاءت بنبوة بعد محمد ﷺ الذي ختم الله به النبيين. وإذا كان بعض العلماء يتحرج عن تكفيرهم عموماً فإنه لا يتحرج عن تكفير بعض الفرق منهم، كالبديعية من الخوارج الذين قصروا الصلاة على ركعة في الصباح وركعة في المساء. والميمونية، إذ أجازوا نكاح بعض المحارم كبنات البنين وبنات البنات وبنات بني الأخوة، ثم زادوا فأذكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن لاشتمالها فيما يزعمون- على ذكر العشق والحب، والقرآن فيه الجد، وكذا اليزيدية منهم، حيث زعموا أن الله سيرسل رسولاً من العجم فينسخ بشريعتة شريعة محمد ﷺ. ينظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن، توفي ٣٢٤ هـ، بتحقيق هلموت ريتز، دار إحياء التراث العربي، ج ١، ص ٩٥.

(١٠١) - المائدة ٧٣.

(١٠٢) - البينة ١.

(١٠٣) - النساء ١٥٠.

١- كفر التكذيب: كما قال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٠٤) وقوله: ﴿فَانَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(١٠٥)، فهم المكذبون الجاحدون.

٢- الكفر بالقول ككفر «المستهزئين»: وهم من استهزأ بالله، ورسوله، ودينه، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَإِيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(١٠٦) وكما قال ﷻ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾^(١٠٧). وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(١٠٨)، وكقول المنافقين في غزوة تبوك: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء- يعنون النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم- أرغب بطونا، وأكذب ألسنا، وأجبن عند اللقاء)^(١٠٩).

٣- الكفر بالعمل: فالسجود لغير الله والذبح لغير الله، شرك وكفر بالله ﷻ.. إلخ. قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١١٠). إلا أن بعض أهل العلم قد تساهل في شأن هؤلاء وعدهم في زمرة المسلمين، إلا إن علم التوحيد الإسلامي يأبى ذلك ويرفضه.

٤- كفر: الإباء والاستكبار والامتناع عن طاعة الله ﷻ: كما قال ﷻ عن إبليس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١١١). وهذا النوع هو الغالب على كفر أعداء الرسل. ومثل كفر: الإعراض عن دين الله ﷻ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾^(١١٢)

٥- كفر من سب الله ورسوله ودينه: فإن السب ينافي التعظيم الواجب لله ورسوله ولدينه وشرعه، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١١٣)، فتعظيم شعائر الله واجب لا يساوى بغيره ولا يجعل كغيره.

المطلب الثالث: وجوب التفرقة بين النوع والشخص المعين في الحكم على الكافرين

(١٠٤) - الأعراف: ١٤٧.

(١٠٥) - الأنعام: ٣٣.

(١٠٦) - التوبة: ٦٦.

(١٠٧) - التوبة: ٧٤.

(١٠٨) - المنافقون: ٨.

(١٠٩) - الصحيح من أحاديث السيرة النبوية، أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، مدار الوطن، للنشر، ١،

٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م، ج ١، ص ٥٣٠.

(١١٠) - الأنعام: ١٦٢.

(١١١) - البقرة: ٣.

(١١٢) - الأحقاف: ٣.

(١١٣) - الحج: ٣٢.

وهنا أمر يجب أن نلفت النظر إليه، وهو ما قرره المحققون من العلماء، من وجوب التفرقة بين الشخص والنوع في قضية التكفير.

ومعنى هذا: أن نقول: الشيوعيون كفار، أو الحكام والشعوب العلمانية الرافضون لحكم الشرع كفارا، أو من قال كذا أو دعا إلى كذا فهو كافر، فهذا وذلك حكم على النوع، فإذا تعلق الأمر بشخص معين، ينتسب إلى هؤلاء، أو أولئك، وجب التوقف في شأنهم، للتحقق والتثبت من حقيقة موقفه، بسؤاله ومناقشته، حتى تقوم عليه الحجة، وتنفي عنه الشبهة، وتنقطع عنده المعاذير.

وهذا كما في نصوص الوعيد. فإن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١١٤).

"فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار، لجواز أن لا يلحقه الوعيد، لفوات شرط، أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم قد بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم... وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة المحرم... وقد يُبْتَلَى بمصائب تُكْفِرُ عنه، وقد يشفع فيه شفيع مطاع" وقد تكون بلغته الحجة ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها. وقد تكون عرضت له شبهات يعذر الله بها... وقد أجمعت الأمة على وجوب التفرقة بين النوع والمعين (١١٥).

فإذا كان كل هذا الاحتياط واجبا في شأن المصرحين بالكفر، فكيف يجترئ مسلم على تكفير الجماهير التي تشهد أن "لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله" وإن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا؟ إن الإقرار بالشهادتين، قد عصم دماءهم وأموالهم -إلا بحقها- وحسابهم على الله ﷻ. فإنما أمرنا أن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

وقد صح الحديث عن النبي ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ" (١١٦).

المبحث الرابع: بعض سبل علاج ظاهرة التكفير

كي ننجح في علاج هذه الظاهرة ينبغي أن نعالجها من جميع جوانبها، ومعالجة الجانب الفكري من أهمها وذلك لتصح أفهام هذه العقول، كما فعل ابن عباس حينما ناقش الحروريين فعاد آلاف منهم إلى صوابهم، وبقي البعض مُصِرّاً على ما هو عليه، فلو حاورناهم بالحسنى وناقشناهم بالأدلة يمكن عودة بعضهم إلى صوابه،

(١١٤) -النساء- ١٠.

(١١٥) - ينظر: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، توفي ٥٧٢٨هـ، بتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ج ٢٣، ص ٣٤٦. (١١٦) - رواه مسلم عن أبي هريرة، في باب (الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)، ينظر: المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج ١، ص ٥٢.

والبعض الآخر يحتاج إلى سبل علاجية أخرى كالعلاج السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وينبغي أن نبحث عن أسبابها الحقيقية جميعاً، ونعالجها من جميع جوانبها، ومن العلاج أن نناقش هؤلاء ونبيّن لهم خطأهم وسنجد الكثير منهم قد يفتنّون ويعودون إلى صوابهم، وإذا لم يقتنعوا نكون قد حمينا شرائح اجتماعية واسعة من الوقوع في شركهم، فهذا الأسلوب هو علاج من ناحية، وهو وقاية من ناحية أخرى. ثم من لم يتب منهم ويرجع عن غيّه، فسيخضع لحكم القضاء الشرعي النزيه وسيخضع إلى التثبيت والنظر العلمي المعتبر من مختلف مستويات المحاكم، وينبغي على هذه المحاكم تحري العدل والحق في قراراتها.

ويتأتى علاج ذلك بوسائل، من أهمها:

- ١- بنشر العلم الصحيح المأثور عن الله وعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم (في الوحيين الشريفين) وعلى وعي واضح من فقه السلف الصالح، والقضاء بالتالي على الجهل أو محاصرته، كونه بيئة التكفير المثالية التي يترعرع فيها.
 - ٢- معالجة الظواهر الفردية بالحكمة والبصيرة اللائقة بها زماناً وواقعاً وحالاً، ويتأتى هذا بواسطة الحكماء والعلماء والراسخين في العلم من ذوي العقل والفتنة.
 - ٣- قيام الأمراء والعلماء والمربين، كل منهم بواجبه الشرعي المنوط به ديانةً وأداءً للأمانة الواجبة، وإبراء للذمة ونصحاً للأمة إعداراً وإنذاراً.
- إن ثمة علاجاً خاصاً لمن وقع في شباك هذه الفتنة من خلال مسلكين رئيسيين: المسلك الأول: بالرفق واللين والتوجيه والتربية وحسن البيان لمن اشتبه عليه الأمر أو ادلهمت عليه الشبهات والنصح لهم ودعوتهم، ولا يتأتى هذا إلا على يد ذوي العلم والغيرة الراسخين.
- والمسلك الثاني: بأسلوب مقارعة الحجّة ودفع الشبهة، والتأديب والتعزيز اللائقين في المعاند والمكابر، ومن على شاكلته، وهذا منوط بالقضاة والعلماء، وأن ينظر إليهم بعين الحكم الشرعي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء والبراء، والنصح والدعوة لله.

.. وإن استفحال و انتشار هذه الظاهرة الشاذة و تسللها إلى مجتمعنا بفئاته و شرائحه المختلفة يحتم علينا أن تكون لنا وقفة مساهمة بكتابة مثل هذه البحوث التي تعالج مثل هذه القضايا الخطيرة و توضح لكل مسلم أنه يجب عليه أن لا يحكم على شخص أو جماعة بالكفر وأن يدع ذلك للعلماء والقضاة، لأن الحكم على المسلم بالكفر ذنب عظيم، لأنه حكم عليه بالخروج من ملة الإسلام، وأنه حلال الدم و المال، و حكم عليه بالخلود في النار إن مات على ذلك، و لذلك ورد الوعيد الشديد في شأن من يحكم على مسلم بالكفر، و هو ليس كذلك، و قد ثبت عند البخاري عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: " لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك" (١١٧).

(١١٧) سبق تخريجه، هامش ٩٨.

أما الذين يفكرون في علاجها بالقمع والاضطهاد والاعتقال، وما إلى ذلك من ألوان العنف، فهم مخطئون بلا ريب، لأمرين:

أولهما: إن الفكرة لا تقاوم إلا بالفكرة، واستخدام العنف وحده في مقاومتها قد لا يزيدها إلا توسعا، ولا يزيد أصحابها إلا إصرارا عليها. إنما الواجب أن تعالج بوسائل الإقناع والبيان وإقامة الحجة، وإزاحة الشبهات^(١١٨).

ثانيهما: إن هؤلاء المكفرين -في مجموعهم- أناس متدينون، قد هزهم ما يرونه في المجتمع من ردة فكرية، وتحلل خلقي، وفساد اجتماعي، واستبداد سياسي، واستئثار اقتصادي، وتهميش وظيفي.

فهم يحسبون أنهم طلاب إصلاح، حريصون على هداية أمتهم، وإن أخطأوا الطريق وضلوا السبيل. فينبغي أن نقدر دوافعهم الطيبة، ولا نصورهم في صورة مجرمين ووحوش ذات مخالب وأنياب، تريد أن تنقض على المجتمع، فتهدمه وتجعله خرابا يبابا!.

ويمكن التخفيف من هذه الظاهرة أو الحد منها بالأساليب الآتية:

١- نشر العلم الصحيح وفق الوحيين الشريفيين، وعلى هدي من فقه السلف الصالح من لدن الصحابة والتابعين، وانتهاء بعلماء الأمة المشهود لهم بعلمهم، والقضاء على الجهل أو محاصرته.

٢- معالجة الظواهر الفردية بالحكمة والموعظة الحسنة بواسطة الحكماء والعلماء والخبراء بالرفق واللين والتوجيه والتربية وحسن البيان لمن اشتبه عليه الأمر أو أدلهمت عليه الشبهات.. ولا يتأتى هذا إلا على أيد ذوي العلم والخبرة.

٣- القدوة الحسنة من قبل العلماء والأمراء وإرساء العدل في المجتمع وسد باب الذرائع. وأن يتعامل معهم وفق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومبدأ الولاء والبراء، والنصح والدعوة.

٤- معالجته بأسلوب الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة ودفع الشبهة، والتأديب والتعزير اللائقين في المعاند والمكابر، وهذا واجب القضاة والعلماء الراسخون في العلم. واحتضان المتورطين والمخطئين والتائبين وتصحيح أفكارهم لخدمة المجتمع وللوقاية من الإرهاب.

٥- إعداد برامج ومحاضرات ومناظرات لتثقيف المجتمع وتحصينه من آفات التكفير والغلو.

^(١١٨) - الإرهاب أسبابه ووسائل العلاج، عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ، مدار الوطن للنشر، ط٣، ج١، ص٣٦.

٦- النصح لهم ودعوتهم، والإنكار عليهم بأسلوب لائق لكل منهم، وقيام العلماء والتربويين في المبادرة إلى توجيه الناس، وبيان الأمور المشككة عليهم وإيضاحها لهم حسب تقديرهم للأحوال والأمر.

٧- إطلاق الحريات وتأسيس الأحزاب الدينية، والمنظمات والجمعيات الخيرية والإصلاحية للتخفيف من الاحتقانات الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية وغيرها.

كما يجب على الناس وذوي الغيرة والريبة الرجوع إلى العلماء في مشكلات التكفير والتبديع والتفسيق والصدور عن توجيه العلماء ورأيهم. ولا يجوز من ذوي الحماسة والاندفاع الاستهانة بأهل العلم وأحكامهم وفتاواهم ورأيهم. ولعل في هذا البحث تنبيه وذكرى ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (١١٩).

الخاتمة وبعض النتائج:

بعد هذا البيان يتبين لكل ذي عينين مدى الخطأ الجسيم، والخطر العظيم، الذي سقط فيه الذين أسرفوا في "التكفير" حتى غدوا يكفرون الأفراد والمجتمعات بالجملة، معرضين عن كل ما يخالف وجهتهم من نصوص الشرع وأدلته، متأثرين بالتعسف في التأويل، والاستدلال بما ليس بدليل، مخطئين كل من لا يوافقهم من علماء الأمة وأئمتها في القديم والحديث، زاعمين لأنفسهم أنهم قد بلغوا درجة "الإمامة" والاجتهاد المطلق، وأن لهم أن يخالفوا الأمة كلها وما أجمعت عليه سلفا وخلفا. وهذا -والعياذ بالله- من العجب المهلك، والغرور الموبق، والغلو الضار، وليس لهذا مصدر إلا الجهل بالله ﷻ، والجهل بالناس، والجهل بالنفس، وقد قيل رحم الله امرء عرف قدر نفسه، وفي الحديث الصحيح: (إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) (١٢٠) وفي حديث آخر: (هلك المتطعون) (١٢١) -قالها ثلاثا- ومع هذا كله لا أريد أن أقع فيما وقع في هؤلاء المسرفون، فأكفرهم كما كفروا هم الناس، وإن جاءت الأحاديث بتكفير من كفر مسلما، لأن هذه الأحاديث فيمن كفر مسلما بغير تأويل، وهؤلاء لهم تأويلهم وإن كان مرفوضا. ولهذا أصر على القول بأنهم (إخواننا) على الرغم من غلوهم وانحرافهم عن جادة الصواب في أفكارهم. ويقيني أن الكثيرين منهم سيرجعون عن فكرتهم في التكفير إذا تمتعوا بروح الحيدة والإنصاف، والإخلاص في طلب الحق، والبراءة من العصبية، والتحرر من الخوف من ملامة زملائهم، أو تهديد رؤسائهم، الذين يعتبرونهم "مرتدين" بمجرد اختلافهم معهم، أو رجوعهم عن رأيهم، ويفتون بوجوب قتلهم، لأنهم بدلوا دينهم.

١١٩ - ٢٧ ق.

(١٢٠) - قال الألباني صحيح، ينظر: المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، بتحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ج٥، ص٢٦٨.

(١٢١) - إسناده صحيح على شرط مسلم، ينظر: مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت: ٢٤١ هـ، بتحقيق: أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ج١، ص٣٨٦.

ومن النتائج التي توصلت إليها:

١- من واجبنا أن نكف سنتنا عن تكفير المسلمين بذنوبهم وأن نتعامل معهم وفق ظاهرهم، وندع باطنهم إلى الله ﷻ، مثلما تعامل الرسول ﷺ مع المنافقين وأمثالهم في حياته، والابتعاد عن المسائل المذهبية والخلافية، ونحرص كل الحرص على القواسم الدينية والوطنية المشتركة.

٢- وإني لأعلم علم اليقين أن في قواعد هذه الجماعات المتطرفة أقواماً مخلصين، لا يريدون إلا وجه الله، والدار الآخرة، ونصرة الإسلام، ولكنهم لم يتحصنوا بثقافة إسلامية أصيلة، وفقه إسلامي عميق، فصادفت هذه الأفكار قلوباً خالية، فتمكنت منها. وإن عدداً من هؤلاء تبين له الحق فرجع إليه، غير مبال بالتهديد ولا بالوعيد فتعرضوا للإيذاء فصبروا وصابروا.

٣- إن هذه الظاهرة كانت نتيجة لخلو الميدان من حركة إسلامية واعية ناضجة تعمل جهرة في النور، وفي وضوح النهار، فلاذ هؤلاء بالسراديب والكهوف ينسجون خيوطهم ويحيكون مؤامراتهم، ويوم تشرق شمس الدعوة، وترسل أشعتها في الأفاق، ويعلو صوتها بلا خوف ولا إرهاب لن يكون هناك مكان لأهل السراديب من الغلاة والمتطرفين، ولن يكون لأعداء الدين سبيلاً للتأثير في عقول أبناء المسلمين.

٤- لا بد من تعاون العلماء والأمرء على تطويق هذه الظاهرة ووضح الحلول والخطط التي تجفف منابعها تمهيداً للقضاء عليها.

٥- لا بد من تعاون إعلامي وطني ودولي موجه يهدف إلى الابتعاد عن الغلو والتكفير ومثيراته، والتوسط في الإعلام والدعوة، وتجنب الثوابت الإسلامية في الدعوة والنقد والبيث والإعلام والنشر، والابتعاد عن نشر أفكار أو مسلسلات وأفلام تسيء للدين أو أحد رموزه.

٦- إن ممَّا لاشك فيه أن بعض التكفيريين يخضعون لأجهزة أجنبية معادية للأمة والوطن والدين فينبغي محاسبتهم واستتابتهم ومن أصر منهم ينبغي إنزال حكم الله والقانون فيه.

وفي ختام هذا البحث أسأل الله ﷻ، أن يسهم هذا العمل في علاج هذه الظاهرة وبيان أخطارها، و حسبي أنني قد قدمت شيئاً أبغي به وجه الله ﷻ ثمَّ خدمة الإسلام والأمة الإسلامية، وأسأل الله ﷻ أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، و أن يكتب لنا الأجر و المثوبة، إنه هو ولي ذلك و القادر عليه.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر:

- (١) ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: وكالة الطباعة والترجمة في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- (٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة، بيروت.
- (٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- (٤) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م.
- (٥) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، [ت ٥٤٥٨هـ]، معرفة السنن والآثار، بتحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٦) أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال المتوفى: ٣١١هـ، السنة، ط٢، بتحقيق: عطية بن عتيق الزهراني، دار الراية - الرياض، ١٩٩٤م.
- (٧) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت: ٢٤١هـ، مسند أحمد بن حنبل، ط١، بتحقيق: أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- (٨) أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تفسير ابن أبي حاتم، بتحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
- (٩) أبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ط١ بتحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- (١٠) أحمد بن الحسين البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، بتحقيق: أحمد عصام الكاتب، ط١، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- (١١) أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، المجتبى من السنن، ط٢، ، بتحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- (١٢) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بتحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- (١٣) أحمد بن محمد الصاوي (المتوفى: ١٢٤١هـ)، حاشية الصاوي على الشرح الصغير.
- (١٤) أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس توفي ٧٢٨هـ، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية.
- (١٥) أرشيف المجلس العلمي، من موقع الألوكة، www.majles.alukah.net
- (١٦) بابا الفاتيكان في الميزان. الشحود: علي بن نايف الشحود.
- (١٧) بكر أبو زيد، مذكرة ما نهى عنه الإسلام و درء الفتنة، عبد الله بن سفر العبدلي..

- (١٨) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی (المتوفى : ٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى.
- (١٩) جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، ط١، بتحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد ، ، دار ابن خزيمة - الرياض - ١٤١٤هـ.
- (٢٠) حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى : ١٣٧٧هـ)، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، ط١، بتحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
- (٢١) الدويش: سليمان بن أحمد بن عبد العزيز، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة.
- (٢٢) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- (٢٣) صادق: هالة يحيى، فتح رب البرية في تقريب مقدمة شرح العقيدة الطحاوية، بتحقيق: سليمان محمد الهميد، السعودية، رفحاء.
- (٢٤) صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- (٢٥) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٢٦) صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، (المتوفى : ٧٩٢هـ)، شرح العقيدة الطحاوية، ط١، بتحقيق : أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ.
- (٢٧) عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، التوحيد وقررة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، بتحقيق: بشير محمد عيون، ط١، مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية/ مكتبة دار البيان، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- (٢٨) عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف ، نواقض الإيمان القولية والعملية.
- (٢٩) عبد الله بن عبد الحميد الأثري، الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة، بتحقيق: عبد الرحمن بن صالح المحمود. وفتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي.
- (٣٠) غالب بن علي عواجي، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها.
- (٣١) المباركفوري: صفى الرحمن، الرحيق المختوم، وينظر: الشامي: محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى والرشاد.
- (٣٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بتحقيق : محمد حامد الفقي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- (٣٣) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، بتحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧، ٣هـ - ١٩٨٧م.
- (٣٤) محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى : ١١٨٢هـ)، سبل السلام، ط٤، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م..
- (٣٥) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى : ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، ط١، دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- (٣٦) محمد بن صالح العثيمين، ط٢، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٤هـ.
- (٣٧) محمد ناصر الدين الألباني، فتنة التكفير . وجامع لطائف التفسير، عبد الرحمن بن محمد القماش.
- (٣٨) محمود شلتوت ، فتاوي محمود شلتوت.
- (٣٩) نخبة من العلماء، كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ط١، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ.
- (٤٠) هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، بتحقيق : أحمد سعد حمدان دار طيبة، الرياض ، ١٤٠٢.
- (٤١) يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة.

ظاهرة التكفير في المجتمع الإسلامي

وكيفية الحد منها في ضوء الكتاب والسنة

الخلاصة:

في هذا البحث تكلمت عن أصل مصطلح الكفر وتعريفه وجذوره وأنواعه ومنشؤه منذ ظهور فكر الخوارج في صدر الإسلام، وحتى تجدد ظاهرة الغلو مرة أخرى في العصر الحديث، ثم تحدثت عن أسس وقواعد التكفير التي ذكرها علماءنا الأوائل وبينت موانع التكفير والأسباب المباشرة التي أدت إلى بعث مسألة الغلو في التكفير من جديد، وكيفية الوقاية منها وعلاجها ومقاومتها والوقاية منها، ثم بحثت في أهم القواعد التي بنى عليها الدين الإسلامي ورؤيته لمواجهة هذه الظاهرة، ثم بينت أثر وسائل الإعلام في تأجيجها، وأثرها في معالجة هذه الظاهرة إن كانت موجبة وتسير وفق خطة تربوية فكرية واضحة. وقد قدمت رؤية واضحة وبيّنة لمعالجة الغلو في التكفير والإشارة إلى آثاره الميدانية والشرعية على المجتمع، ثم بحثت في الوقاية من هذه الظاهرة وكيفية علاجها والقضاء عليها، درءاً للفتنة وتجنباً لإثارة الفرقة والتشتيت بين المسلمين، سيما بعد أن فقدت الأمة السيادة على أراضيها والقوامة على مواطنيها، وإن هذا الأمر ليس بالهين، بل هو خطير للغاية وهو يشغل بال الكثير من الشباب في مجالسهم وحلقاتهم ومنتدياتهم، ويشغل بال المفكرين وأصحاب الشأن، وقضية التكفير والإرهاب تعد أول قضية فكرية شغلت بال المسلمين، ثم لم يلبث الفكر الإسلامي أن تجاوز هذه المرحلة. واستقر على ما هو عليه اليوم، وكان لها آثارها العقلية والعملية (عسكرية وسياسية) على عدة أجيال من أبنائنا، الذين أسرفوا في "التكفير" حتى أضحوا يكفرون الأفراد والمجتمعات، معرضين عن كل ما يخالف رؤيتهم من نصوص الشرع وأدلته، متأثرين بالتعسف في التأويل، والاستدلال بما ليس بدليل، مخطئين كل من لا يوافقهم، زاعمين لأنفسهم العصمة وأنهم قد بلغوا درجة "الإمامة" والاجتهاد المطلق. ثم تكلمت عن أهم بواعث وأسباب هذه الظاهرة التي يمكن تلخيصها بالآتي:

١- كثرة الخصوم والأعداء الذين باتوا يشكلون خطراً حقيقياً على ديننا وعلى عقيدتنا، مستغلين أجواء الحرية والديمقراطية التي ينادي بها العالم الغربي اليوم.

٢- سيادة الجهل وفشوه في المجتمع ولاسيما في موضع القرار.

٣- خلو الميدان من حركة إسلامية واعية ناضجة تعمل نهائياً جهاراً وتواكب التقدم الحضاري الهائل وتعمل على حل مشكلاته وتداعياته، بلا خوف ولا إرهاب وبلا تضيق أو ملاحقة للدعاة وأصحاب الفكر.

٥- غياب التعاون الثقافي والإعلامي الذي يهدف إلى تجفيف منابع الإرهاب ومحاربة الغلو والتكفير والإرهاب ومثيراته، ووجوب التوسط في الإعلام والدعوة والنشر، وتجنب الثوابت الإسلامية في النقد، والابتعاد عن نشر الأفكار المسلسلات والأفلام التي تسيء للدين أو لأحد رموزه.

٤- عدم التعاون بين العلماء والأمراء لمواجهة النقاط السابقة وتداعياتها.

أرجو أن أكون قد وفقت في تغطية هذه الظاهرة وأن ينفع بما كتبت الإسلام والمسلمين آمين.

The phenomenon of atonement in the Islamic community

In this research I talked about the origin of the expression "disbelief" ,it's definition ,roots,kinds and sources, since the thinking of 'Al-khawarij' appeared in the early Islamic age until the phenomenon of hyperbole was renewed again in the modern age.Then I talked about the bases and rules of accusing others of disbelief which our previous scientists mentioned .I also clarified the preventives of this phenomenon with the direct reasons which aroused it again,how to prevent it,to deal with it and to resist it.Then I discussed the main basic rules of Islam, and the Islamic vision to face this phenomenon. I talked about the effect of media to arouse it or to treat it if the media is guided according to a clear educational mental plan.I presented a clear vision to deal with hyperbole in accusing others of disbelief ,referring to its legal field-effects on society. Then I discussd how to prevent this phenomenon, how to deal with it and overcome it to prevent disorder and to prevent breaking up the links of the Moslem society,especially when the nation has lost dominance on it's land and patronage on it's fellow citizens.This subject matter is not easy, but it's very dangerous. It engages the youth-thinking in about all their circles as well as all thinkers and important people . Terrorism and accusing people of disbelief are considered the first mental matter that all Moslems are busy with. It didn't last long that the Islamic ideology exceeded this stage and settled it down as it can be seen today.It has had it's mental and practical effects(military and political) on many of our young generations who exaggerated too much in accusing others of disbelief. They accused indivisuals and societies denying all the legal basic terms and evidences that reject their vision , interpreting and making evidence in what can't be evident, finding fault with all those who don't agree with them claiming to be immaculate and

that they have reached the degree of 'Imams' and that they are diligent . Then I talked about the main reasons of this phenomenon which I can summarize as follows: ١. Too many enemies who have become a real danger on our religion and belief using the atmosphere of freedom and democracy that the western world is calling for. ٢. The dominance of illiteracy and ignorance in the society especially with the decision -makers . ٣. The lack of a conscious mature Islamic movement working openly and going on with the great progress and civilization of the world dealing with all the problems without fear , without terrorism ,without being restricted, or its thinkers or leaders being followed up. ٤. No cooperation between scientists and leaders to face the previous points. ٥. The absence of educational media cooperation which can aim to drain the origins of terrorism and fight hyperbole, accusing others of disbelief and terrorism and their causes. There should be also an intermediating in media ,publishing and calling people to Islam ,to avoid criticising the Islamic basic terms and not to spread bad thinking through serials and films that can give bad impression about Islam or any of it's symbols. I hope I have succeeded to cover this phenomenon and I hope that Islam and Moslems can benefit from it .At last praise be to Allah Lord of all beings.

ظاهرة التكفير في المجتمع الإسلامي
وكيفية الحد منها في ضوء الكتاب والسنة

The phenomenon of atonement and terrorism in the
Islamic community

*- بقلم: د/ قدور أحمد الثامر / أستاذ الفكر والعقائد الإسلامية.

Dr.kaddour Althamer

/ جامعة الأنبار. كلية التربية / القائم.

University of Anbar

COLLEGE OF EDUCATION AL-QAIM

قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية.

P.H.D. *- الدرجة العلمية / دكتوراه

*- اللقب العلمي / استاذ مساعد.
التخصص العام/ فلسفة.
التخصص الدقيق/ علم الكلام.
*- هاتف/ ٠٧٨٠٢١٤٤٣٤٠ /

٠٧٨٠٢١٤٤٣٤٠

*- البريد الالكتروني : .

kaddourAhmadAlthmer@gmail.com